

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَهُ وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَعَاتَيْنَاهُ
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

[النحل: 120 - 123]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

يقول الرازي: "اعلم أنه تعالى لما زَيَّفَ في هذه السُّورَةِ مذاهبَ
المُشْرِكِينَ في أَشْيَاءَ، مِنْهَا قَوْلُهُمْ بِإِثْبَاتِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ لِلَّهِ تَعَالَى،
ومنها طَعْنُهُمْ في نُبوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ ﷺ، وقَوْلُهُمْ: لو أَرْسَلَ اللَّهُ
رَسُولًا؛ لَكَانَ ذَلِكَ الرَّسُولُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ومنها قَوْلُهُمْ بِتَحْلِيلِ أَشْيَاءَ
حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَتَحْرِيمِ أَشْيَاءَ أَبَاحَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمَّا بَالَغَ في إِبْطَالِ
مذاهبِهِمْ في هذه الأقوالِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ رَئِيسَ الْمُوَحِّدِينَ وَقُدْوَةَ
الْأُصُولِيِّينَ، وَهُوَ الَّذِي دَعَا النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِبْطَالِ الشُّرْكِ وَإِلَى
الشَّرَائِعِ، وَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُفْتَخِرِينَ بِهِ مُعْتَرِفِينَ بِحُسْنِ طَرِيقَتِهِ
مُقَرَّرِينَ بِوُجُوبِ الْإِقْتِدَاءِ بِهِ، لَا جَرَمَ ذِكْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى في آخِرِ هذه
السُّورَةِ، وَحَكَى عَنْهُ طَرِيقَتَهُ في التَّوْحِيدِ؛ لِيَصِيرَ ذَلِكَ حَامِلًا لِهَوْلَاءِ
الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الشُّرْكِ (1).

شريعة الذين
هادوا، واشتراك
المشركين
معهم، في
شبهاتهم حول
أبي الأنبياء
إبراهيم ﷺ

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أُمَّةً﴾: الهمزة والميم أصل واحد، يَنْفَرُ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ،
وهي الْأَصْلُ وَالْمَرْجِعُ وَالْجَمَاعَةُ وَالِدِينُ، وَهذه الأربعة مُتَقَارِبَةٌ، وَبَعْدَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20 / 283.

ذَلِكَ أَسْوَلُ ثَلَاثَةً، وَهِيَ الْقَامَةُ وَالْحَيْنُ وَالْقَصْدُ⁽¹⁾، وَكُلُّ شَيْءٍ يُضْمُّ إِلَيْهِ مَا سِوَاهُ مِمَّا يَلِيهِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي ذَٰلِكَ الشَّيْءَ أُمًّا، وَمِنْ ذَلِكَ أُمُّ الرَّأْسِ، وَهُوَ الدِّمَاغُ، تَقُولُ: أَمَمْتُ فُلَانًا بِالسَّيْفِ وَالْعَصَا أُمًّا: إِذَا ضَرَبْتَهُ ضَرْبَةً تَصِلُ إِلَى الدِّمَاغِ، وَالْأَمِيمُ: الْمَأْمُومُ، وَهِيَ أَيْضًا الْحِجَارَةُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا الرُّؤُوسُ⁽²⁾.

والأُمَّة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إما دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعها: أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾، أي: قَانِتًا مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة⁽³⁾.

(2) ﴿قَانِتًا﴾: القاف والنون والتاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دينٍ، لا يعدو هذا الباب، والأصل فيه الطَّاعَةُ، يُقَالُ: قَنْتَ يَقْنُتُ قُنُوتًا، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ اسْتِقَامَةٍ فِي طَرِيقِ الدِّينِ قُنُوتًا، وَقِيلَ لِطَوِيلِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ: قُنُوتٌ، وَسُمِّيَ السُّكُوتُ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا قُنُوتًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]⁽⁴⁾، والمعنى المحوري الذي تدور حوله مادَّةُ (قنت): احتواءٌ باطن الشيء على رخاوةٍ متمكِّنةٍ فيه لا تفارقه - كحال السَّقاء الذي لا يتسرَّب منه الماء، وبذا يظل رخوًا، والانقيادُ يكون من لين الباطن وعدم قساوته، ومنه القُنُوت: الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية، ورخاوة الباطن نوعٌ من الضَّعف يتأتَّى منه كلُّ ما فسَّروا به القنوت من خضوع، وطاعة، وسكوت حين الصلاة، ودعاء، وعبادة، وطول قيام للصلاة، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنْتُونَ﴾ [البقرة: 116]، مطيعون وخاضعون، كلُّ قائمٍ بالشَّهادة أنَّه عبده، والجمادات قنوتها في ظهور الصَّنعة عليها وفيها⁽⁵⁾، والقنوت: لزوم الطَّاعة مع الخضوع، وفُسِّرَ بكلِّ واحدٍ منهما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَّهُ قَنْتُونَ﴾ [الروم: 26] قيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون⁽⁶⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَّ).

(2) الخليل، العين: (أَمَّ).

(3) الراغب، المفردات: (أَمَّ).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنت).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيِّ للوُضَل: (قنت).

(6) الراغب، المفردات: (قنت).

(3) ﴿حَنِيفًا﴾: الحاءُ والنُّونُ والفاءُ أصلُ مُسْتَقِيمٍ، وهو المَيْلُ، يُقَالُ لِلَّذِي يَمْشِي عَلَى ظُهُورِ قَدَمَيْهِ: أَحَنَفُ، وَقَالَ قَوْمٌ - وَأَرَاهُ الْأَصَحَّ -: إِنَّ الْحَنَفَ اعْوِجَاجٌ فِي الرَّجْلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَرَجُلٌ أَحَنَفُ، أَيُّ: مَائِلُ الرَّجْلَيْنِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَنَّ تَدَانِي صُدُورُ قَدَمَيْهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَقِبَاهُ، وَالْحَنِيفُ: الْمَائِلُ إِلَى الدِّينِ الْمُسْتَقِيمِ⁽¹⁾، والمعنى المحوريُّ للمادَّة: الالتفاتُ الشَّيْءِ أو اعوجاجه عن معتاد الحال: ومن الاعوجاج في صورة انحناء الحَنَفَاء: القوسُ، والموسى، والسَّلْحَفَاة، والحرباء، فكلُّ تلك معوجَّةٌ مادِّيًّا لانحناء هيئتها، ومن معنويِّ هذا: الأُمَّةُ الحنفاء: المتلونة تكسل مرة وتتشط أخرى، ومن الالتفات عن معتاد الحال: حَنَفَ عَنِ الشَّيْءِ، وَتَحَنَّفَ: مال، والحنيف: المسلمُ الذي يتَحَنَّفُ عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، أَي: يميل عنها إلى الدِّينِ الْحَقِّ⁽²⁾، وَالْحَنَفُ: هو ميل عَنِ الضَّلَالِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْحَنِيفُ هُوَ الْمَائِلُ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ ﷺ: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، وَقَالَ: ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67]⁽³⁾.

(4) ﴿اجْتَبَلَهُ﴾: يقول الخليل: الْجَبَى: محضر البئر، والجَبَى: نشيلة البئر، وهي ترابها الذي حولها، تراها من بعيد، تقول: أَرَى جَبَى بئرٍ، وَجَبَى حَوْضٍ، وَالْجَابِيَةُ: حَوْضٌ ضَخْمٌ وَاسِعٌ تَشْرَبُ مِنْهُ الْإِبِلُ فِي مَرْكُومِنِ الْأَرْضِ، وَالتَّجْبِيَةُ: رُكُوعٌ كَرُكُوعِ الْمُصَلِّي، وَالتَّجْبِيَةُ: أَنْ يُجْبِيَ الرَّجُلُ عَلَى وَجْهِهِ بَارِكًا، وَاجْتَبَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ: إِذَا قَرَّبَهُ⁽⁴⁾.

والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة يقوم على استخراج بقوة أو كثرة للماء ونحوه إلى حِيْزٍ جَامِعٍ كَبِيرٍ، كَجَمْعِ الْمَاءِ مِنَ الْبئرِ فِي الْجَابِيَةِ ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ [سبا: 13]: جَمْعُ جَابِيَةٍ، وَمِنْهُ الْجَابِيَةُ: اسْتِخْرَاجُ الْمَالِ مِنْ مِظَانِّهِ، جَبَى الْخِرَاجَ وَالْمَالُ يُجْبِيهِ وَيَجْبَاهُ وَيَجْبُوهُ ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا عَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: 57]، وَمِنِ الْأَصْلِ أُخِذَ الْاجْتِبَاءُ: الْإِصْطِفَاءُ وَالِاخْتِيَارُ، وَأَصْلُهُ أَخَذَ وَضُمَّ إِلَى حِيْزٍ، وَالصِّيغَةُ تَجْعَلُهُ إِلَى النَّفْسِ: ﴿وَكَذَلِكَ يُجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6].

ومنه أيضًا جاء: اجْتَبَى الشَّيْءَ: جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، أَي: تَكَلَّفَ اسْتِخْرَاجَهُ، وَالصِّيغَةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حنف).

(2) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ لِلْوَصْلِ: (حنف).

(3) الراغب، المفردات: (حنف).

(4) الخليل، العين: (جبي).

تعطي الاجتهاد المتمثل في التَّكْلُفِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيَّاتَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيَتْهَا﴾ [الأعراف: 203] (1)، والاجتباء: الجمعُ على طريق الاصطفاء، قال ۞: ﴿فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [القلم: 50]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيَّاتَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيَتْهَا﴾ [الأعراف: 203]، أي: يقولون: هلاً جمعتها، تعريضاً منهم بأنك تخترع هذه الآيات، وليست من الله، واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض الهي يتحصّل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصّديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ ۝﴾ [القلم: 50] (2).

(5) ﴿حَسَنَةً﴾: الحاءُ والسّينُ والنونُ أصلٌ واحدٌ، فالحسَنُ ضدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرأةٌ حَسَنَاءُ وحُسَانَةٌ والمَحَاسِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ: ضِدُّ الْمُسَاوِيَّةِ (3)، والمعنى المحوريُّ لمادّة (حسن): نَقَاءُ الشَّيْءِ ورقته بخروج الحُشْنِ أو الغليظ الذي يخالطه، فيشوبُ رِقَّتَهُ منه، ومن هذا عبّر التركيب عن الحُسْنِ، أي: جمال المنظر ونقائه ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52] نقاؤهن، والمعنويُّ منه ﴿عَلَى رَفْرِيفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٦٦) [الرحمن: 76]، ثم عُمِّم في الطّيب الرقيق من الصُّحْبَةِ: ﴿وَحَسَنَ أَوْلَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) [النساء: 69]، والنَّعْمَةُ: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: 11]، والعملِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: 93]، ومن هذا: الحَسَنَةُ ضِدُّ السَّيِّئَةِ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، والقول ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، والحسنى: التي تَفْضُلُ سواها في الحُسْنِ، فأُطْلِقَتْ على الجنة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] (4).

وعند الرَّاغِب: الحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسِّ، والحسنة يُعبّر عنها عن كلِّ ما يسرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادُّها، وهما من الألفاظ المشتركة، كالحَيَوَانِ، الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما (5).

(1) جبل، العجم الاشتقاقيّ للؤصل: (جبي).

(2) الرَّاغِب، المفردات: (جبي).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).

(4) جبل، العجم الاشتقاقيّ للؤصل: (حسن).

(5) الرَّاغِب، المفردات: (حسن).

﴿ الْمَغْنَى الْإِجْمَالِيَّ ﴾

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، كَانَ مُعَلِّمَ خَيْرٍ، يَأْتُمُّ بِهِ أَهْلَ الْهَدْيِ، مَطِيعًا لِلَّهِ حَنِيفًا، مُسْتَقِيمًا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَهْلِ الشُّرْكِ بِهِ، وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَهْلَ الشُّرْكِ بِهِ مِنْ قَرِيشٍ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنَّهُمْ مِنْهُ بَرَاءٌ، وَكَانَ يَخْلُصُ الشُّكْرَ لِلَّهِ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَلَا يَجْعَلُ مَعَهُ فِي شُكْرِهِ فِي نِعْمِهِ عَلَيْهِ شَرِيكًا مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا يَفْعَلُ مُشْرِكُو قَرِيشٍ، وَقَدْ اصْطَفَاهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَذَلِكَ دِينُ الْإِسْلَامِ لَا الْيَهُودِيَّةَ وَلَا النَّصْرَانِيَّةَ، وَآتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَتْلِهِ لِلَّهِ، وَشُكْرِهِ لَهُ عَلَى نِعْمِهِ، وَإِخْلَاصِهِ الْعِبَادَةَ لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ذِكْرًا حَسَنًا، وَثَنَاءً جَمِيلًا بَاقِيًا عَلَى الْأَيَّامِ، وَإِنَّهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِمَنْ صَلَحَ أَمْرُهُ وَشَأْنُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَحَسُنَتْ فِيهَا مَنْزِلَتُهُ وَكَرَامَتُهُ، وَقُلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدٌ: اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ حَنِيفًا مُسْلِمًا عَلَى الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ، بَرِيئًا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُكَ، كَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ تَبَرًّا مِنْهَا⁽¹⁾.

اتَّصَفَ إِبْرَاهِيمُ
بِصِفَاتٍ
كَثِيرَةٍ، دَلَّتْ
بِمَجْمُوعِهَا عَلَى
رَدِّ افْتِرَاءِ اتِّهَامِهِ
عَنْهُ

﴿ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ ﴾

نَكْتَةُ تَرْكِ الْعُطْفِ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يَقُولُ ابْنُ عَاشُورَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ ابْتِدَائِيٌّ لِلِانْتِقَالِ إِلَى غَرَضِ التَّنْوِيهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ بِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾، الْمَقْصُودُ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ اتَّبَعُوا الْإِسْلَامَ، فَبَعْدَ أَنْ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ غَفَرَ لَهُمْ مَا عَمِلُوهُ مِنْ قَبْلُ زَادَهُمْ فَضْلًا بَيَانِ فَضْلِ الدِّينِ الَّذِي اتَّبَعُوهُ، وَجَعَلَ الثَّنَاءَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ مُقَدِّمَةً لِذَلِكَ؛ لِبَيَانِ أَنَّ فَضْلَ الْإِسْلَامِ

انْحِرَافُ الْمُشْرِكِينَ
وَالْيَهُودِ،
عَنِ الْحَنِيفِيَّةِ
السَّمْحَةِ الَّتِي
جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ



(1) ابن جرير، جامع البيان: 316 / 17 - 319.

فَضْلٌ زَائِدٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ بِأَنَّ مَبْدَأَهُ بِرَسُولٍ وَمُنْتَهَاهُ بِرَسُولٍ، وَهَذَا فَضْلٌ لَمْ يَحْظَ بِهِ دِينٌ آخَرٌ.

وَالْأَصْلُ الْأَصِيلُ الَّذِي تَفَرَّعَ عَنْهُ وَعَنْ فُرُوعِهِ هَذَا الْإِنْتِقَالُ مَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا مِنْ تَحْرِيمِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى النَّاسِ.

وَنَظَرُهُمْ بِالْيَهُودِ؛ إِذْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَشْيَاءَ، تَشْدِيدًا عَلَيْهِمْ، فَجَاءَ بِهَذَا الْإِنْتِقَالِ لِإِفَادَةِ أَنَّ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ قَدْ حَادَوْا عَنِ الْحَنِيفِيَّةِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُتَابِعُوهَا، وَأَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ هِيَ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ إِبَاحَةِ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، إِلَّا مَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَحْرِيمَهُ فِي آيَةٍ ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145] (1).

دلالة البدء بالمؤكدات في الآية:

أُسْتَهْلَتْ الْآيَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بِعَدِيدٍ مِنْ أَسَالِيبِ التَّأَكِيدِ مِنْهَا: ﴿إِنَّ﴾، وَالْجُمْلَةُ الْأَسْمِيَّةُ وَالَّتِي خَبَرُهَا جُمْلَةٌ أَسْمِيَّةٌ أَيْضًا، وَفِيهَا يَتَكَرَّرُ ذِكْرُ الْمَبْتَدَأِ الْأَوَّلِ وَإِنْ كَانَ مَحذُوفًا، وَهَذَا النَّوَالِي فِي الْمُؤَكَّدَاتِ إِنَّمَا جَاءَ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ وَصَفَتْهُ بِتَسْعِ صِفَاتٍ قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ، وَرَفَعَتْ مِنْ قَدْرِهِ، وَعَرَّضَتْ بِبَعْضِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أُلْقِيَتْ حَوْلَهُ وَحَوْلِ عَصَمَتِهِ، فَاقْتَضَى الْأَمْرُ تَزَاحِمَ هَذِهِ الْمُؤَكَّدَاتِ.

نكتة حذف اسم ﴿كَانَ﴾:

التَّقْدِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، أَي: كَانَ هُوَ أُمَّةً، فَحُذِفَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ إِيْجَازًا، لِتَقْدُّمِ ذِكْرِهِ، وَلِتَسْرِيعِ ذِكْرِ خَبَرِهِ، وَهُوَ ﴿أُمَّةً﴾.

بلادة المجاز في الوصف بالأمة:

ذَكَرَ الْإِمَامُ الرَّازِي فِي تَوْجِيهِهِ وَصْفَهُ ﷺ بِأَنَّهُ أُمَّةٌ: أَنْ تَكُونَ أُمَّةً فُعْلَةً بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَالرُّحْلَةِ وَالْبُعْيَةِ، فَالْأُمَّةُ هُوَ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، وَدَلِيلُهُ

تناسب زخم
المؤكدات مع
تراحم الشبهات

ما قام به
إبراهيم ﷺ في
حياته، يوازي
فعل أمة من
الأمم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 315 / 14.

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، أو أنه ﷺ هو السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ جُعِلَتْ أُمَّتُهُ مُمْتَازِينَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالَّذِينَ الْحَقُّ، وَلَمَّا جَرَى مَجْرَى السَّبَبِ؛ فيكون وصفه بالأمة إطلاقاً لِاسْمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ⁽¹⁾ من باب المجاز المرسل بعلاقة (المسببية)، أو بعلاقة (العموم) حيث أطلق اللفظ العام، وأراد به خاصاً، وهو ما يعرف عند الأصوليين باللفظ العام المراد به خاص، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: 54]، حيث المراد بلفظ ﴿النَّاسِ﴾ [النساء: 54] هنا الرسول ﷺ.

نكتة تنكير لفظ «أمة»:

تتنوع أغراض التنكير بحسب تنوع المعاني المحتملة للفظ، فيمكن أن يفيد تنكير لفظ «أمة» هنا معاني التعظيم والتفخيم والتكثير على اعتبار أنه يوازي العدد الغفير من الناس، ويمكن حمل التنكير على النوعية على اعتبار أن إبراهيم ﷺ كان أمة غير باقي الأمم.

دلالة جملة «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً»:

إيراد ذكره ﷺ عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة، وتحريم ما أحل الله تعالى؛ للإيدان بأن حقيقة دين الإسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه، وفي ذلك أيضاً ردٌّ على قريش واليهود حيث يزعمون أنهم على دينه⁽²⁾، ليظهر الفرق بين حاله ﷺ وحال المشركين وحال اليهود، ففي الجملة تعريض بهم.

دلالة البناء الصرفي لقوله: «قَانِتًا»:

بناءً قوله: «قَانِتًا» على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشتق من

مكانة إبراهيم
ليست
كغيره

ما أكثر الذين
خرجوا عن ملة
إبراهيم
مع زعمهم
الانتساب له

صفة الطاعة
والامتثال، لم
تفارق إبراهيم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20 / 284.

(2) الألوسي، روح المعاني: 7 / 483.

المصدر المبني للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلّق به⁽¹⁾، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

دلالة لام الجر في لفظ الجلالة (لِلَّهِ):

اللام هنا قد تكون للتقوية؛ لأنَّ العامل ﴿قَانِتًا﴾ هنا اسم مشتقُّ عملٍ عملَ الفاعل، وجاء متقدِّمًا والتقدير: (لِلَّهِ قَانِتًا)⁽²⁾، فأفادت لامُ التقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدّى بنفسه دونها، ولا مانع من حملها على معنى التعليل، والتقدير: (قَانِتًا لأجل الله).

الموقع البياني والنحوي لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

هذه الكلمة وقعت بيانياً موقعَ الصِّفة الثالثة لإبراهيم عليه السلام، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتّصالها بها؛ إذ لا عطف بين صفات لموصوفٍ واحدٍ إلا إذا دعت البلاغة إلى ذلك.

وأما نحوياً؛ فهي إمّا أن تكون خبراً ثالثاً لـ ﴿كَانَ﴾، أو حالاً من ضمير ﴿قَانِتًا﴾⁽³⁾.

البناء الصرّي لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

بُني قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشتقَّ من المصدر المبني للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلّق به⁽⁴⁾، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

فائدة عطف قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾:

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الظاهرُ في الواو أنّها هنا عاطفةٌ،

طاعة إبراهيم
ﷺ، كانت
خالصةً لله دون
سواه

ميلٌ نبيّ الله
إبراهيم عليه السلام،
كان للحق،
وليس عن الحق

إبراهيم عليه السلام كان
دائمً الليل عن
الباطل للحق

إبراهيم عليه السلام
كان يدعو
للوحدانية،
ويحارب الشرك
وأهله

(1) الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، ص: 61.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 316 / 14.

(3) السمين الحلبي، الدرّ للصون: 301 / 7.

(4) الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، ص: 61.

عظفت الصِّفَةُ الرَّابِعَةَ لإبراهيم ﷺ على الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ، ويكون سببُ مجيئها معطوفة بالواو دون ما تقدَّمها من إنزال التَّغَايِرِ العنَوَانِيَّ مَنْزِلَةَ التَّغَايِرِ الذَّاتِيَّ، بمعنى الإِشَادَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ دُونَ غَيْرِهَا لِفَضْلِهَا، فَهِيَ قَدْ نَفَتْ عَنْهُ الشَّرْكَ، لِذَلِكَ عُظِفَتْ بِالْوَاوِ لِلإِشَارَةِ إِلَى مَغَايِرَتِهَا لِمَا سَبَقَهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ عُظْفِهَا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿حَنِيفًا﴾ أَنَّهُ يَوْجَدُ نَوْعٌ مِنَ التَّقَابِلِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿حَنِيفًا﴾، أَيْ: مَائِلًا، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُفَادَ الْآخِرَةِ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَيَحْسُنُ عِنْدَئِذٍ الْعُظْفُ بَيْنَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التَّوْبَةُ: 112]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثَبَّتَتْ وَأَبْكَرًا﴾ [التَّحْرِيم: 5]، وَيُمْكِنُ حَمْلُ الْوَاوِ عَلَى مَعْنَى الْحَالِيَّةِ عَلَى مَعْنَى: كَانَ حَنِيفًا، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

نَكْتَةُ نَفْيِ الشَّرْكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ:

الْمُتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿حَنِيفًا﴾ يَدُلُّ عَلَى مِيلِهِ عَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، ثُمَّ يَأْتِي عُظْفُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ التَّأَكِيدِ، وَتَقْرِيرِ الصِّفَةِ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي مَعْنَاهُ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ سَبَبَ عُظْفِهَا عَلَيْهَا أَنَّ وَصْفَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ يَعْنِي: الْمَيْلَ لِفَعْلٍ، وَقَدْ يُوْهَمُ هَذَا أَنَّ مِيلَهُ عَنْ مَذَاهِبِ غَيْرِهِ قَدْ يَوْفَعُهُ فِي الشَّرْكِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَيَكُونُ قَدْ أَتَى بِهَذَا الْوَصْفِ لِدَحْضِ هَذَا الظَّنِّ، أَوْ لِبَيَانِ حَالِ مِيلِهِ عَنْ مَذَاهِبِهِمْ، بِأَنَّهُ كَانَ فَرَارًا مِنَ الشَّرْكِ.

سُرُّ مَعْنَى الْأَدَاةِ (لَمْ) النَّافِيَةِ:

حَرَفُ نَفْيٍ وَجَزْمٍ وَقَلْبٌ، يَقْلِبُ الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ إِلَى مَعْنَى الْمَاضِي، وَيَجْزِمُ فِعْلًا وَاحِدًا، وَيُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ الْهَمْزَةُ عَلَيْهَا (أَلَمْ)، يَقُولُ ابْنُ عَاشُورٍ: وَنُفْيَ كَوْنِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِحَرْفِ (لَمْ)؛ لِأَنَّ (لَمْ) تَقْلِبُ زَمْنَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ إِلَى الْمَاضِي، فَتُقْفِدُ انْتِفَاءَ مَادَّةِ الْفِعْلِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي، وَتُقْفِدُ تَجَدُّدَ ذَلِكَ الْمَنْفِيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْفِعْلِ

نفْيُ تَهْمَةِ
الشَّرْكِ عَنْ
إِبْرَاهِيمَ ﷺ
بِطَرِيقٍ مُتَنَوِّعَةٍ

بَيَانُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَمْ يَتَلَبَّسْ
سَابِقًا بِالشَّرْكِ،
وَلَنْ يَتَلَبَّسَ بِهِ
مُسْتَقْبَلًا

المُضَارِعِ، فَيَحْصُلُ مَعْنَيَانِ: انْتِفَاءُ مَدْلُولِ الْفِعْلِ بِمَادَّتِهِ، وَتَجَدُّدُ الْإِنْفَاءِ بِصِيغَتِهِ، فَيُقِيدُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يَتَلَبَّسْ بِالْإِشْرَاقِ قَطُّ، فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْذُ صَارَ مُمَيِّزًا، وَأَنَّهُ لَا يَتَلَبَّسُ بِالْإِشْرَاقِ أَبَدًا⁽¹⁾.

دلالة الموقع النحوي لقوله: ﴿وَلَمْ يَكْ﴾:

نفى تهمة
الشُّرك عن
إبراهيم ﷺ،
ولو قيد أنملة

فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه السُّكُونُ الظَّاهِرُ عَلَى النَّونِ الَّتِي حُذِفَتْ تَخْفِيفًا⁽²⁾، والغرض من حذف النون هنا عند ابن عطية هو كثرة الاستعمال⁽³⁾، والذي يبدو أنَّ سبب الحذف المُفْضِي إِلَى التَّخْفِيفِ هُوَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يَدْخُلْ فِي دَائِرَةِ الشُّرْكِ، وَلَوْ لِلْحِظَةِ وَاحِدَةٍ، فَجَاءَ التَّخْفِيفُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِ كَوْنِهِ فِي دَائِرَةِ الشُّرْكِ الْبَيِّنَةِ.

نكتة حذف اسم: ﴿يَكْ﴾، ومعنى ﴿مِنْ﴾:

بيان أنَّ الشُّرك
خلافُ الحنيفية
السَّامِيَّةِ

حُذِفَ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ، وَتَقْدِيرُهُ: هُوَ، وَيَعُودُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، إِيْجَازًا لِلْعِلْمِ بِهِ، وَتَدُلُّ ﴿مِنْ﴾ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفَارِقَهَا، وَيُمْكِنُ حُمْلُهَا عَلَى التَّبْعِيضِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَلَا ضَيَّرَ مِنْ حَمَلِهَا عَلَى الْبَيَانِ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ غَيْرَ الْحَنِيفِيَّةِ، تَشْمَلُ الشُّرْكَ وَالْكَفْرَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرَهُمْ.

دلالة (أل) على الجنس في ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾:

لم يكن الخليل
منتميًا إلى
أي صنف من
الشُّرك النبوذ

الْأَلِيقُ بِالسِّيَاقِ هُنَا حَمْلُهَا عَلَى الْجِنْسِيَّةِ، عَلَى اعْتِبَارِ نَفْيِ جِنْسِ الشُّرْكِ عَنْهُ، فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَمِيًّا إِلَى صَنْفٍ مِنْ صُنُوفِ الشُّرْكِ مَطْلَقًا.

نكتة فصل جملة: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾:

إبراهيم ﷺ
أنموذج في
شكر النعم

هَذِهِ الْجُمْلَةُ وَقَعَتْ بَيَانِيًّا مَوْقِعَ الصِّفَةِ الْخَامِسَةِ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَلِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ عَلَى سَابِقَتِهَا لِكَمَالِ اتِّصَالِهَا بِهَا؛ إِذْ لَا عُطْفَ بَيْنَ صِفَاتٍ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ إِلَّا إِذَا دَعَتْ الْبَلَاغَةُ إِلَى ذَلِكَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 316 / 14، 317.

(2) صافي، الجدول في الإعراب: 411 / 7.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 430 / 4.

وأما نحوياً؛ فهي إما أن تكون خبراً خامساً لـ (كان)، أو حالاً من ضمير ﴿يَا﴾⁽¹⁾.

دلالة البناءِ الصَّرْفِيِّ لقوله: ﴿شَاكِراً﴾:

بناءً قوله: ﴿شَاكِراً﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشتُقَّ من المصدر المبني للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلق به⁽²⁾، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتَّى بات اسماً له.

معنى اللَّامِ في قوله: ﴿لَأَنْعِمَ﴾:

اللام هنا قد تكون للتَّقوية؛ لأنَّ العامل ﴿شَاكِراً﴾ هنا اسم مشتقُّ عملٍ عملَ الفاعل، وجاء متقدِّماً والتَّقدير: (لأنَّعِمه شاكراً)⁽³⁾، فأفادت لام التَّقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدَّى بنفسه دونها، ولا مانعَ من حملها على معنى التَّعليل، والتَّقدير: (شاكراً لأجل أنعم الله).

غرض التعبير بجمع القلةِ ﴿لَأَنْعِمَ﴾:

يقول الرازي: فإن قيل: لفظُ الأنعم جمعُ قلةٍ، ونعمُ الله تعالى على إبراهيمَ ﷺ كانتَ كثيرةً، فلم قال: ﴿شَاكِراً لَأَنْعِمَ﴾؟ قلنا: المرادُ أنَّه كان شاكِراً لِجميعِ نعمِ الله إنَّ كانتَ قليلةً، فكيفَ الكثيرةُ؟⁽⁴⁾ فيكون من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، وفيه حثٌّ للمدعوين على أن يكونوا كأبيهم إبراهيمَ ﷺ في شكره لله على قليل النعم فضلاً عن كثيرها.

نكتةٌ فصل جملة ﴿أَجْتَبَيْتُهُ﴾:

هذه الجملة وقعت بيانياً موقعَ الصِّفة السادسة لإبراهيمَ ﷺ،

كان إبراهيمُ
دائمَ الشُّكر لربه
ملازماً له

شكرُ إبراهيمَ
لنعم،
كان لأجل الله لا
لسواه

شكرُ النعم
القليلةِ مُفضٍ
إلى شكر النعم
الكثيرة من بابٍ
أولى

(1) السمين الحلبي، الذَّر للصوص: 301 / 7.

(2) الحملوي، شذا العرف في فنِّ الصَّرف، ص: 61.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 316 / 14.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 284 / 20.

اجتباء الله
تعالى لإبراهيم،
لتمييزه بصفات
فيه أهله لذلك

حذف الفاعل
غايته الانشغال
بالفعل عن
الفاعل

هياً الله نبيه
إبراهيم ﷺ،
ليكون أصلاً لكل
الأنبياء

جمع الاجتباء
مع الهداية،
قوائم الشخصية
الإبراهيمية
المصطفاة

التركيز على
الفعل يكون
دافعاً للهداية

تقديم السبب
على السبب
منطق واقعي
مقبول

ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتصالتها بها؛ إذ لا عطف بين صفات لموصوفٍ واحدٍ إلا إذا دعتِ البلاغةُ إلى ذلك.
وأما نحوياً؛ فهي إما أن تكون خبراً سادساً لـ (كان)، أو حالاً من ضمير ﴿اجْتَبَاهُ﴾⁽¹⁾، ويمكن أن يكون سببُ فصل الجملة عن سابقتها الاستئنافُ البيانيُّ، جواباً عن سؤالٍ مقدَّرٍ: ما سببُ فوزه بهذه المحامد⁽²⁾؟

نكتة حذفِ الفاعل في الفعل: ﴿اجْتَبَاهُ﴾:

حُذف فاعلُ الاجتباء إيجازاً للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممَّا سبقه: ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ﴾، وحتى ينشغلوا بالفعل عن الفاعل.

غرضُ العدولِ من الاسمِيةِ إلى الفعلِيةِ:

عدل النَّصُّ الحكيم عن قوله: مُجْتَبًى أو المُجْتَبَى إلى التعبير بالفعل الماضي؛ وذلك ليبين أنَّ هذا الاجتباء كان قديماً ومراداً، وأنَّ الله تعالى قد هيَّاه منذ القدم لحمل هذه الأمانة.

فائدةُ العطفِ في قوله: ﴿وَهَدَاهُ﴾:

الواو هنا عاطفة، عطفَت نعمةَ الهداية على الاجتباء، وحسُن العطفُ لاشتراك الجملتين في الفعلِيةِ والماضويةِ.

نكتةُ حذفِ الفاعلِ من الفعلِ ﴿وَهَدَاهُ﴾:

حُذف فاعلُ الهداية إيجازاً للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممَّا سبقه: ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ﴾، وحتى يركِّزوا اهتمامهم على الفعلِ نفسه، ليكون باعثاً لهم على الاهتداء.

غرضُ تقديمِ الاجتباءِ على الهدايةِ:

تقديمُ الاجتباء على الهداية، من تقديمِ السببِ على المُسَبَّب؛ فالهدايةُ هي ثمرةُ هذا الاجتباء.

(1) السَّمين الحليّ، الدرّ اللصون: 301/7.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 317/14.

نكتة تعدية الهداية ب (إلى):

قوله تعالى: ﴿وَهَدِنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿إِلَى﴾ حرف جر، ومعناه: انتهاء الغاية الزمانية والمكانية، والفعل (يهدي) يتعدى باللام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: 35]، ويتعدى بإلى، كما في الآية هنا؛ وقد تعدى هنا بـ ﴿إِلَى﴾، ولم يتعد باللام؛ لتضمنه معنى الانتهاء في الهداية، أي: هدى الله إبراهيم هدىً منتهياً في هدايته إلى صراط مستقيم⁽¹⁾، وهو طريق الإسلام الذي رسمه الله له، أو هو طريقة الدعوة إليه، أي: "وهداهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ في الدعوة إلى الله"⁽²⁾، وفي هذا إشارة إلى أن المهتدي لا يزال في طريق الهداية يسعى، ويجتهد، قصداً للوصول إلى الغاية الكبرى، وهي دخول الجنة؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو وسيلةٌ توصل للغاية التي هي دارُ السَّلام، ولهذا عُدِّي الفعل بإلى، ولم يتعد باللام؛ لأنَّ دلالتها على التعليل، وهذا لا يناسب استعمالها مع الصراط؛ لأنَّه ليس الغاية.

نكتة تنكير لفظ ﴿صِرَاطٍ﴾:

أفاد تنكير هذه اللفظة هنا: معاني التعظيم والتَّفخيم.

بلادة الاستعارة في قوله: ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَهَدِنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استعارةٌ تصرّحية؛ حيث شبه البيانَ الإلهيَّ الإسلامَ بالصِّراطِ المستقيم، فحذف المشبَّه: وهو الإسلام، وصرَّحَ بالمشبَّه به: وهو الصِّراطِ المستقيم، أي: الطريق الذي لا اعوجاجَ فيه، فالصِّراطُ حقيقةٌ في الطَّرِيقِ الحسِّي استعارةٌ للإسلام، وشبَّه الإسلامَ بالطَّرِيقِ الحسِّي بجامع

الصِّراطُ
المستقيمُ وسيلةٌ
توصلُ إلى الجنةِ
دارِ السَّلامِ

الإسلامُ
كالطَّرِيقِ
الموصلِ إلى
الغايةِ المطلوبةِ
بدونِ اعوجاجٍ

(1) البضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 112، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 143، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3665.

(2) البضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 244.

أَنَّ كَلًّا مَوْصِلٌ لِّلْمَقْصُودِ، وَفِي تَشْبِيهِهِ الطَّرِيقَ الْحَسِّيَّ الْمَدْرَكَ بِالْبَصَرِ
تَصْوِيرٌ لِّلْمَعْنَوِيِّ الْمَدْرَكِ بِالْعُقُولِ اعْتِنَاءً وَمِبَالِغَةً فِي إِظْهَارِهِ.

نَكْتَةٌ وَصِفِ الصَّرَاطِ بِالِاسْتِقَامَةِ:

كَثِيرًا مَا يَصِفُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ صَرَاطَهُ بِالِاسْتِقَامَةِ مَعَ أَنَّهُ لَا
يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ؛ وَهَذَا الْوَصْفُ لِّلصَّرَاطِ بِالِاسْتِقَامَةِ إِنَّمَا هُوَ لِإِشَادَةِ
بِاسْتِقَامَةِ صَرَاطِ اللَّهِ دُونَ سُبُلِهِمُ الَّتِي يَسْلُكُونَهَا، وَلَيْسَتْ هَذِهِ
الصِّفَةُ مُقَيَّدَةً بِمَعْنَى: أَنَّ هُنَاكَ صَرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَصَرَاطًا غَيْرَ
مُسْتَقِيمٍ، بَلْ لِلتَّرْكِيزِ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي لَا يَنْفَكُ عَنْ صَرَاطِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ، وَفِيهِ تَعْرِيزٌ بِسُبُلِهِمُ الْمَعْوِجَّةِ.

دَلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاتَيْنَهُ﴾:

الْوَاوُ هُنَا عَاطِفَةٌ، عَطَفَتْ الصِّفَةَ الثَّامِنَةَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى مَا
تَقَدَّمَ، وَالَّذِي يَحْسُنُ الْعَطْفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لَهَا،
اشْتِرَاكُهُمْ فِي الْفَعْلِيَّةِ، وَالْمَاضَوِيَّةِ.

نَكْتَةٌ إِسْنَادِ الْإِيتَاءِ إِلَى ضَمِيرِ الْعِظَمَةِ:

فِي إِسْنَادِ الْإِيتَاءِ إِلَى ضَمِيرِ الْعِظَمَةِ، تَفْخِيمٌ لِهَذَا الْإِيتَاءِ، وَرَفْعٌ
لِقَدْرِهِ، وَأَنَّهُ إِيْتَاءٌ يَلِيقُ بِمَنْ أُسْنَدَ إِلَيْهِ.

بَلَاغَةُ الْاِلْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاتَيْنَهُ﴾:

وَالِاِلْتِفَاتُ إِلَى التَّكَلُّمِ لِإِظْهَارِ كَمَالِ الْاعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ، وَتَفْخِيمِ
مَكَانِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، دَاخِلٌ فِي عِدَادِهِمْ
كَأَنَّهُ مَعَهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَا مِنَ الْجَنَّةِ⁽¹⁾.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ:

يَقُولُ الرَّاعِبُ: الْإِيتَانُ: مَجِيءٌ بِسَهُولَةٍ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ فِي
وَصْفِ الْكِتَابِ (آتِينَا)؛ فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ ذَكَرَ فِيهِ (أَوْتُوا)؛

فِي وَصْفِ الصَّرَاطِ
بِالِاسْتِقَامَةِ،
تَعْرِيزٌ بغيره

عَطَفَ الصِّفَاتِ
الْإِيجَابِيَّةَ عَلَى
بَعْضِهَا، دَلِيلٌ
عَلَى السَّمَوِّ
وَالْكَمَالِ

مَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ
تَعَالَى، فَهُوَ مَدَدٌ
لَا يَنْضَبُ

إِظْهَارُ مَكَانَةِ
إِبْرَاهِيمَ لَتَعْلِيلِ
دَوَاعِي تَفْضِيلِهِ
وَتَمْيِيزِهِ

الْإِيتَاءُ فِيهِ
سَهُولَةٌ وَعَطَاءٌ
كَبِيرٌ

(1) الْاَلُوسِي، رُوحُ الْعَالِي: 484 / 7.

لأنَّ (أوتوا) قد يقال: إذا أوتي من لم يكن منه قبُول، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قبُولٌ.

والإيتاء: الإعطاء، وخصَّ دفع الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 277] (1).

معنى ﴿في﴾ و﴿ال﴾ من قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾:

ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، والمعنى: في حياته الأولى على الأرض، حيث شبَّه إحاطة الحياة الأولى فيه بإحاطة الغرفة أو المكان على من هو فيه، ومعنى (أل) في ﴿الدُّنْيَا﴾: عهدِيَّةٌ ذهنيَّةٌ؛ لأنَّ المراد فيها حياته الأولى على الأرض.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾:

قدَّم شبه الجملة الظرفيَّة على المفعول الثاني لـ ﴿وَعَاتَيْنَهُ﴾، للعناية بظرف الإيتاء ومكانه قبل بيان نوعه وماهيَّته؛ وللتشويق، لما سيأتي بعدها من وصف حاله في الآخرة.

غرض تنكير لفظ ﴿حَسَنَةً﴾:

الحسنة تشمل ما قيل: بأن حَبَّبه إلى النَّاسِ حتى إنَّ جميع أهل الأديان يتولَّونه، ويُثَنُّون عليه ﷺ حسبما سأل بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84] وقيل: الحسنة النبوة، وقيل: الأولاد الأبرار على الكبر، وقيل: المال يصرفه في وجوه الخير والبرِّ، وقيل: العمر الطويل في السَّعة والطاعة (2)، ولذا فإنَّ حمل التَّنكير على العموم والتَّعظيم أليقُ بهذا المقام.

بلادة العطف في قوله: ﴿وَأَنَّهُ﴾:

عطف الواو هنا الصِّفة التاسعة لإبراهيم عليه السلام، على الصِّفات السابقة، والذي سوَّغ العطف بينهما وجود التَّقابل بين وصف حاله في الدنيا، وحاله في الآخرة.

من رعتُه عنايةً
الله في الدُّنيا؛
نال الأمان،
وحاز السَّعادة

ذكرُ حسنةٍ
الدُّنيا، مُشَوِّقٌ
لحسنة الآخرة

أكرمَ الله تعالى
إبراهيمَ
بالعطاءات
وخصوصاً النبوة

خلاصة الحياة،
ما يكونُ في
الآخرة من نِجاة

(1) الراغب، المفردات: (أُتِيَ).

(2) الألوسي، روح المعاني: 7 / 484.

فائدة توالي المؤكِّدات في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مجموعة من أدوات التوكيد وأساليبه هي: (إِنَّ، والاسميَّة، واللام المرحقة التي كانت في أصلها لام ابتداء، وتقديم شبه الجملة ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾، وتزاحم هذه المؤكِّدات فيه خروجٌ عن الظاهر دون مقتضى الحال؛ لأنَّ الخطاب كان مع النَّبي ﷺ والفئة المؤمنة معه، وهم لا ينكرون هذه الحقيقة، ولكنَّ هذا التزاحم في المؤكِّدات إنما جاء تعريضاً لليهود الذين افتروا على إبراهيم ﷺ ما افتروه، حيث إنَّ الآية الكريمة قد وطأت لحديث الآية التي تليها عن أصحاب السَّبْت، فبيَّنت الآية الكريمة أنَّ إبراهيم ﷺ في عداد الصَّالحين المنزَّهين عن كلِّ نقیصة.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾:

قدَّم شبه الجملة الظرفیَّة على خبر (إِنَّ) اعتناءً بإبراهيم ﷺ، بأنَّه من الفائزين في الآخرة، وتشويقاً لما يأتي بعدها من الحكم عليه بالصَّلاح.

دلالة اللام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، اللام هنا هي اللام المرحقة، والتي تفيد التَّأكيد، وقد كانت ملازمةً للمبتدأ (هو)، على أنَّها لامُ الابتداء، فلمَّا دخلت (إِنَّ)؛ انتقلت إلى الخبر؛ لأنَّ لغة العرب تكره تلاصق المؤكِّدات.

معنى ﴿لَمِنَ﴾ في قوله: ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

﴿لَمِنَ﴾ هنا قد تكون ابتدائية، وهو المعنى الذي لا يكاد يفارقها، بمعنى أنَّ بداية جزائه في الآخرة، تبدأ من الحكم عليه بالصَّلاح، ويمكن حملها على التَّبَعِيض على معنى أنَّه واحدٌ من إخوانه الأنبياء المشهود لهم بالصَّلاح، فضلاً عن كونها بيانيةً تمثِّل لبعض الثَّواب الذي ينتظره.

تزاحم
المؤكِّدات لتزاحم
الشُّبهات

العناية بإبراهيم
الخليل، تأكيد
لقيامه عند
الجليل

تأكيد احتساب
إبراهيم ﷺ في
زمرة الصَّالحين

لحرف المعنى
هنا دلالة على
ما يميِّز الموصوف
الأكرم ﷺ

معنى (أَل) في لفظ ﴿الصَّالِحِينَ﴾:

يمكن حمل (أَل) هنا على العهد الذَّهْنِيّ، على معنى الأنبياء والمشهود لهم بالصَّلاح ممَّن تعرفونهم، ويمكن حملها على الجنس على معنى: هو واحدٌ من جنس الصَّالحين.

نكتة تغاير النظم في الآية:

يُلاحظ أنَّه لما وصف السَّيِّاقُ حالَ إبراهيم ﷺ في الدُّنيا، قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، ووصف حاله في الآخرة بقوله: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فلم يقل: (وجعلناه في الآخرة لمن الصَّالحين) مثلاً، فقد جاءت الجملة الثَّانية على هيئة الاسميَّة التي تفيد التأكيد، وازدحمت بمجموعة من المؤكِّدات؛ لأنَّ حالَ فلاحه في الدُّنيا وحفظِ الله له ظاهرٌ للعيان لا يماري فيه أحدٌ، وإنَّما احتاج الأمر تأكيد حاله في الآخرة تعريضاً باليهود الذين ستأتي الآيات للحديث عنهم بعد هنيهة، فكان هذا التَّغايرُ في النظم والأسلوب؛ لبيان أنَّ حاله في الآخرة محققٌ مؤكَّد لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل.

بلغة الطِّباق بين ﴿الدُّنْيَا﴾ و﴿الْآخِرَةِ﴾:

بين اللَّفْظَتَيْنِ طباقٌ إيجابٍ، حيث جمعتِ الآيةُ الكريمة بين لفظَيْنِ متضادَّين، بل هما متناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلا يخلو المرء من أن يكون إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة.

بلغة العطف في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾:

أفاد العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّراخيَّ الرَّبُّيَّ، يقول الزَّمَخْشَرِيُّ: في هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محلِّه، والإيذان بأنَّ أشرف ما أوتي خليلُ الله إبراهيم من الكرامة، وأجلُّ ما أولي من النِّعمة: اتِّباعُ رسولِ الله ﷺ ملته، من قبل أنَّها دلَّت على تباعد هذا النَّعْتِ في المرتبة من بين سائر النِّعوت التي أثنى الله عليه بها⁽¹⁾.

الصَّالِحُونَ
مشهودٌ لهم
بذلك، والانتماء
إليهم فلاخ

حال إبراهيم
ﷺ في الآخرة
معروفٌ مقرَّرٌ

بضدِّها تتميَّزُ
الأشياءُ

مكانة نبيِّنا
رفيعةُ القدر؛
لأنَّها من ذات
الشَّكاة

(1) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكشاف: 2/ 643.

نكتة الإسناد في قوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾:

في قوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ إسنادٌ لفعل الوحي إلى ضمير الاسم الأحسن؛ لبيان أن الله تعالى هو الذي تولاه، واجتبه للرَّسالة، وفي ذلك ردٌّ على مشركي مكَّة ومن لفَّ لفَّهم الذين اتَّهموه بالكذب والافتراء على الله، ثم إنَّ فيها تعريضاً باليهود الذين سيأتي الحديث عنهم في الآية الآتية، بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ من نفس الملة ونفس المشكاة، ولم يكن بدعاً من الرُّسل.

معنى ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَتَّبِعْ﴾:

(أَنْ) تفسيرية، فسَّرت هنا المراد بالإيحاء، أو مصدرية، على معنى: بأن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم، أي: باتِّباعها، ومن المحققين من اقتصر على احتمال المصدرية⁽¹⁾.

دلالة الأمر باتِّباع المِلَّة:

يفيد الأمر ﴿أَتَّبِعْ﴾ معنى الوجوب، وقد يدلُّ على الثبات والدوام؛ لأنَّ شأنه ﷺ كذلك، يقول الألوسي: وفي لفظ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ثمَّ الأمر باتِّباع المِلَّة لا اتِّباع إبراهيم ﷺ، ما يدلُّ على أنَّه ﷺ ليس بتابع له، بل هو مستقلُّ بالأخذ عمن أخذ إبراهيم ﷺ عنه⁽²⁾، ومعنى اتِّباع مُحَمَّدٍ ﷺ مِلَّةَ إبراهيم الواقع في كثيرٍ من آيات القرآن أنَّ دينَ الإسلام بُنِيَ على أصولِ مِلَّةِ إبراهيم، وهي أصولُ الفِطْرة، والتَّوسُّطُ بَيْنَ الشَّدَّةِ واللَّينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78/3].

نكتة المجاز في الأمر بالاتِّباع:

يقول ابن عاشور عن الأمر في قوله: ﴿أَتَّبِعْ﴾: مجازٌ مرسَّلٌ في

ما جاء به نبينا
كان وحياً
من الله تعالى،
كما كان مع
إبراهيم

اختيار أداة
التفسير لإيضاح
الفهوم المراد من
الاتِّباع

ملة الأنبياء من
مشكاة واحدة،
وإن اختلفت
شرائعهم

الاتِّباع دليلٌ على
المحبة والطاعة

(1) الألوسي، روح المعاني: 2/ 374.

(2) الألوسي، روح المعاني: 7/ 485.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 320.

الِاقْتِصَارِ عَلَى الشَّيْءِ وَمُلَازِمَتِهِ دُونَ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ مَعْنَى
الِاتِّبَاعِ الْحَقِيقِيِّ، وَهُوَ الْمَشْيُ خَلْفَ الْمُتَّبِعِ⁽¹⁾، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ
بِالِاتِّبَاعِ اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً تَبْعِيَّةً بِتَشْبِيهِ الْعَمَلِ بِالَّذِينَ بِالِاتِّبَاعِ
بِجَامِعِ الْمَلَازِمَةِ.

نَكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي «مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»:

أَضَافَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْمِلَّةَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ»، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ،
هُوَ جَدُّ نَبِيِّنَا ﷺ، وَهُوَ مِنْ سَمَّانَا الْمُسْلِمِينَ: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَلُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»
[الحج: 78]، وَقَدْ تَكُونُ عَلَى الْمَجَازِ عَلَى اعْتِبَارِ، أَنَّ مِلَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ،
تَشْبِهَ مِلَّةَ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، وَلَا تَخَالَفُهَا إِلَّا فِي الشَّرَائِعِ.

إِبْرَاهِيمُ
شَدِيدُ الْحَرَصِ
وَالْتَّفَانِ فِي
تَنْفِيزِ الْأَمْرِ
الرَّبَّانِيِّ

نَكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

عَدَلَتِ الْآيَةُ عَنِ الْإِضْمَارِ فِي ذِكْرِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَلَمْ تَقُلْ:
(أَنْ أَتَّبِعْ مِلَّتَهُ)، وَأُظْهَرَتْ ذِكْرُهُ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَعْظِيمِ
شَأْنِهِ ﷺ، وَلِبَيَانِ أَنَّ الْمُتَّبِعِينَ إِنَّمَا هُمَا مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ لِلتَّذْكِيرِ
بِحَنِيفِيَّتِهِ وَنَفْيِ الشُّرْكِ عَنْهُ.

فِي الْإِظْهَارِ فِي
مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ،
أَغْرَاضُ بَيَانِيَّةٍ
كَثِيرَةٌ تَنَاسَبَتْ
مَوَاضِعُهَا

الْمَوْقِعُ النَّحْوِيُّ لِقَوْلِهِ: «حَنِيفًا»:

«حَنِيفًا» حَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَتَأْتِي الْحَالُ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ فِي
ثَلَاثِ صُورٍ:

أَوَّلًا: أَنْ يَكُونَ الْمُضَافُ جُزْءًا مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

ثَانِيًا: أَوْ كَالْجُزْءِ مِنْهُ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، فَ«حَنِيفًا» حَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ
الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْمِلَّةُ كِبْعُضُهُ فِي صَحَّةِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ
إِلَيْهِ مَقَامَهُ؛ إِذْ لَوْ قِيلَ: (وَآتَى إِبْرَاهِيمَ)؛ لَكَانَ صَحِيحًا.

كَانَ إِبْرَاهِيمُ
مَائِدًا
عَنِ الْبَاطِلِ إِلَى
جَانِبِ الْحَقِّ

(1) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 242/7.

ثالثًا: أن يكون المضاف عاملاً في الحال، كأن يكون مصدرًا أو وصفاً: نحو: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 4]، ف ﴿جَمِيعًا﴾ [يونس: 4] حالٌ من الكافِ والميمِ المضافِ إليه، و﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: 4]: مصدر ميميٌّ عاملٌ في الحال النَّصَب⁽¹⁾.

نكتة إعادة وصفه بـ ﴿حَنِيفًا﴾:

يقول ابنُ عاشور: "وَانْتَصَبَ ﴿حَنِيفًا﴾ على الحالِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، فيكونُ زيادةً تأكيدٍ لمُماثلِهِ قَبْلَهُ، أو حالاً مِنْ ضَميرِ إِلَيْكَ، أو مِنْ ضَميرِ اتَّبِعْ، أي: كُنْ - يا محمد ﷺ - حَنِيفًا، كما كانَ إِبْرَاهِيمُ حَنِيفًا"⁽²⁾.

فائدة العطف في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، هو مِمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، المحكي بقوله: ﴿ثُمَّ أُوحِيَنا إِلَيْكَ﴾، وهو عطفٌ على ﴿حَنِيفًا﴾ على كلا الوجهين في صاحب ذلك الحال، فعلى الوجه الأول يكون الحال زيادةً تأكيدٍ لقوله قَبْلَهُ: ﴿وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وعلى الوجه الثاني يكون تنزيهاً لشرعية الإسلام المتبعةً لِمَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَنْ يُخَالِطَهَا شَيْءٌ مِنَ الشُّرْكِ⁽³⁾، فثمرَةُ الجمع بين أسلوبَي نفي الشُّرْكِ عنه، هو بيان نفيه بالكلية عنه.

معنى ﴿وَمَا كَانَ﴾ في سياق الآية:

(ما) نافية، وإذا دخلت على ﴿كَانَ﴾؛ أفادت قوَّة النفي، ومباعدة المنفي؛ لأنها مُشعرةٌ بالجحود.

معنى ﴿مِنْ﴾ في السياق الكريم:

تدلُّ (من) على الابتداء، وهو المعنى الذي لم يكن ليفارقها، ويمكن حملها على التبعية على معنى أنه لم يكن واحداً منهم،

الأمرُ بالانْتِساءِ
بإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
كانَ موصوفاً
بالحنيفيّة

تنوّعت أساليبُ
الآياتِ في نفي
الشُّرْكِ عن أبي
الأنبياءِ إِبْرَاهِيمَ
ﷺ

قوَّةُ النَّفيِ
مقابلةً لشِدَّةِ
الجحودِ

تنوّعُ معاني
حرفِ المعنى
يوسّعُ الدَّلالةَ
أكثرُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 384 / 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 14.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 14.

ولا ضيّرَ من حملها على البيان على اعتبار أن غير الحنيفيّة تشملُ
الشُّرك والكفر وأهل الكتاب وغيرهم.

معنى (أل) في لفظ «المُشركين»:

الأليقُ بالسياق هنا حملها على الجنسيّة، على اعتبار نفي جنس
الشُّرك عنه؛ فلم يكن منتمياً إلى صنف من صنوف الشُّرك مطلقاً.

فائدة تغيير النظم في نفي الشُّرك:

نفي القرآن الكريم الشُّرك عن إبراهيم ﷺ في الآية السابقة
بالجملة الفعلية، وهنا بالجملة الاسميّة، يقول ابنُ عاشور: فَحَصَلَ
مِنْ قَوْلِهِ السَّابِقِ: «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وَمِنْ قَوْلِهِ هُنَا: «وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ثَلَاثُ فَوَائِدَ: نَفَى الْإِشْرَاكَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ فِي جَمِيعِ
أَزْمَنَةِ الْمَاضِي، وَتَجَدَّدَ نَفْيُ الْإِشْرَاكَ تَجَدُّدًا مُسْتَمِرًّا، وَبَرَاءَتُهُ مِنَ
الْإِشْرَاكَ بَرَاءَةً تَامَّةً⁽¹⁾.

❁ الفروق المعجميّة:

الجنفُ والحنفُ:

تَقَدَّمَ أَنَّ الْحَنْفَ اعْوِجَاجٌ فِي الرَّجْلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَرَجُلٌ أَحْنَفُ،
أَيُّ: مَائِلُ الرَّجْلَيْنِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَنْ تَتَدَانِيَ صُدُورُ قَدَمَيْهِ، وَيَتَبَاعَدَ
عَقِبَاهُ، وَالْحَنِيفُ: الْمَائِلُ إِلَى الدِّينِ الْمُسْتَقِيمِ⁽²⁾، وَالْمَعْنَى الْمَحْزُورِيُّ
لِلْمَادَّةِ: التَّفَاقُتُ الشَّيْءِ أَوْ اعْوِجَاجُهُ عَنْ مَعْتَادِ الْحَالِ، وَالْحَنِيفُ:
الْمُسْلِمُ الَّذِي يَتَحَنَّفُ عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، أَيُّ: يَمِيلُ عَنْهَا إِلَى الدِّينِ
الْحَقِّ⁽³⁾، وَالْحَنْفُ: هُوَ مِيلُ عَنِ الضَّلَالِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ.

وَأَمَّا الْجَنْفُ: فَهُوَ مِيلٌ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ إِلَى الضَّلَالِ، يَقُولُ ابْنُ
فَارِسٍ: الْجَيْمُ وَالنَّوْنُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمَيْلُ، يُقَالُ: جَنَفَ؛ إِذَا

كُلُّ أَصْنَافِ
الشُّرْكَ مَذْمُومَةٌ
وَمَشْهُومَةٌ

الْبَالِغَةُ فِي
نَفْيِ الشُّرْكَ
عَنِ إِبْرَاهِيمَ
ﷺ، تَعْرِضُ
بِالْمُشْرِكِينَ
وَالْيَهُودِ

الْجَنْفُ مِيلٌ
عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ،
وَالْحَنْفُ مِيلٌ
عَنِ الْبَاطِلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 14.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حنف).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ للوُضُل: (حنف).

عَدَلَ وَجَارَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ تَنَاهُؤُهُ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: 182]، وَرَجُلٌ أَجْنَفٌ إِذَا كَانَ فِي خَلْقِهِ مَيْلٌ، وَيُقَالُ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الطَّوْلِ وَالْإِنْجِنَاءِ، وَيُقَالُ: تَجَانَفَ عَنْ كَذَا، إِذَا مَالَ⁽¹⁾، وَالْمَعْنَى الْمَحْوَرِيُّ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ: مِيلٌ بِسَبَبِ انْخِسَافٍ، أَوْ نَقْصٍ فِي جَانِبٍ مِنَ الشَّيْءِ: كَمَا وَصَفَ، وَمِنْ هَذَا الْجَنَفُ: الْمَيْلُ وَالْجَوْرُ⁽²⁾، وَبِالتَّالِيِ فَرِغَ تَقَارِبِ حُرُوفِ الْجَذْرَيْنِ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنَ الْأُضْدَادِ.

الاجتباء والاصطفاء:

الاجتباء هو
تهيئة للاصطفاء

الاصطفاء: من الجذر اللُّغَوِيَّ (صفو)، المعنى المحوريُّ له: خُلُوُّ الشَّيْءِ مِنَ الْخَشُونَةِ وَالْكَدْرِ وَمَا إِلَيْهِمَا، كَمَا فِي مَلَا سَةِ الصَّفَا وَنَقَاءِ مَا يُصَفَّى مِنَ الْكَدُورَةِ وَالشَّوَابِ ﴿*إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 158]، وَمِنْ ذَلِكَ "أَصْفَاهُ بِكَذَا: أَعْطَاهُ الصَّفْوَةَ (النَّقِيَّ الْجَيِّدَ) مِنَ الشَّيْءِ ﴿أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ﴾ [الإسراء: 40]، وَالصَّفِيُّ فَعِيلٌ: مَا اخْتَارَهُ الرَّئِيسُ مِنَ الْمَغْنَمِ لِنَفْسِهِ (اسْتَخْلَصَ أَوْ اسْتَحْسَنَ)، ثُمَّ عُمِّمَ عَلَى الْجَيِّدِ الْمُخْتَارِ، كَالنَّاقَةِ الْكَثِيرَةِ الْحَمَلِ، وَالنَّاقَةِ الْكَثِيرَةِ اللَّبَنِ، وَاسْتَصْفَى الشَّيْءَ وَاصْطَفَاهُ: اخْتَارَهُ كَأَنَّهُ أَخَذَهُ؛ لِأَنَّهُ أَصْفَى جَنْسِهِ أَوْ أَجُودَهُ، وَالْمُصْطَفَى ﷺ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ ﴿*إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] وَهُوَ ﷺ أَكْرَمُ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ⁽³⁾.

والاجتباء: من الجذر اللُّغَوِيَّ (جبي) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: جَبَيْتُ الْمَالَ، أَي: جَمَعْتُهُ، وَجَبَيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ، أَي: جَمَعْتُهُ، وَمِنْهُ الْجَابِيَّةُ: الْحَوْضُ الَّذِي يُجْمَعُ فِيهِ الْمَاءُ⁽⁴⁾.
واجتباء الشَّيْءِ: هُوَ اقْتِعَالُهُ وَإِعْدَادُهُ وَتَهْيِئَتُهُ وَصَنْعُهُ، يَقُولُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنف).

(2) جبل، العجم الاشتقاقي للؤصل: (جنف).

(3) جبل، العجم الاشتقاقي للؤصل: (صفو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).

الرَّاغِب: واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصّل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصّديقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ﴾ [القلم: 50] (1)، وعلى هذا فالاجتباء هو سابق للاصطفاء وتهيئة له.

السَّبِيل والطَّرِيق والصِّرَاطُ:

يقال للطريق الواضح: صراط؛ لأنّه كأنّه يسترط المارّة لكثرة سلوكهم (2)، الصّراط هو الطريق المُستسهل أصله من سَرَطَت الطَّعَامُ ابتلعته، فقيل: صراط تصوّراً أنّه يبتلعه سالكه، أو يبتلع سالكه (3)، والصّراط الطّريق المُستقيم (4)، والصّراط طريق علّمت للسّالك جميع معاملته، فهو يعلم جميع ما يلقاه أثناء الطّريق من بدايته الى نهايته، فالله تعالى قد بيّن دينه ووضّحه، ولا يخفى شيء على من أراد أن يسلك صراط الله، وجاء الصّراط في القرآن الكريم في أغلب المواضع منسوباً إلى الله تعالى، مثل قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 126]، بينما خصّ السَّبِيل للدلالة على طريق أهل الضلال، إلا في المواضع التي جاءت معه القرينة المانعة من ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] .

وأما السَّبِيل؛ فمنها طريق سالك، ومنها غير ذلك؛ فالسَّبِيل منها الطّريق الذي لم يطرقه طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يسبق له أن سلكه، فهو مجهول عنده، وقد يكون معلوماً عند غيره، ومنها طريق سابل، ونخلص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة،

الصّراط يتّصف بالاستقامة والوضوح دون غيره

(1) الراغب، المفردات: (جبي).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).

(4) الراغب، المفردات: (صرط).

وَالسَّبِيلُ مِنْهَا مَا هُوَ سَالِكٌ وَمِنْهَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
بِالْإِفْرَادِ وَالْجَمْعِ بِخِلَافِ الصَّرَاطِ، فَلَمْ يَأْتِ إِلَّا مَنْفَرَدًا.

أَمَّا الطَّرِيقُ؛ فَيَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَكِنَّ السَّبِيلَ أَغْلَبُ وَقَوْعًا
فِي الْخَيْرِ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَا يَكَادُ اسْمُ الطَّرِيقِ يَرَادُ بِهِ الْخَيْرُ إِلَّا
مَقْتَرَنًا بِوَصْفٍ، أَوْ إِضَافَةً تَخْلُصُهُ لَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30] (1).

الدِّينَ وَالْمِلَّةَ:

الْمِلَّةُ اسْمٌ لَجُمْلَةٍ
الشَّرِيعَةِ،
وَالدِّينُ اسْمٌ لِمَا
عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْ أَهْلِهَا

فَرَّقَ بَيْنَهُمَا أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ بِأَنَّ الْمِلَّةَ اسْمٌ لَجُمْلَةِ الشَّرِيعَةِ،
وَالدِّينَ اسْمٌ لِمَا عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ: فُلَانٌ
حَسَنُ الدِّينِ، وَلَا يُقَالُ: حَسَنُ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هُوَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ،
وَيُقَالُ: لَخِلَافِ الذَّمِّ: الْمَلِيٌّ، نِسْبَةً إِلَى جُمْلَةِ الشَّرِيعَةِ، فَلَا يُقَالُ لَهُ:
دِينِي، وَتَقُولُ: دِينِي دِينُ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا تَقُولُ: مِلَّتِي مِلَّةُ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ
الْمِلَّةَ اسْمٌ لِلشَّرَائِعِ مَعَ الْإِقْرَارِ بِاللَّهِ.

وَالدِّينَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَقَرُّبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ
يَكُنْ فِيهِ شُرَائِعٌ، مِثْلَ دِينِ أَهْلِ الشَّرْكِ؛ وَكُلُّ مِلَّةٍ دِينٌ، وَلَيْسَ كُلُّ دِينٍ
مِلَّةً، وَالْيَهُودِيَّةُ مِلَّةٌ؛ لِأَنَّ فِيهَا شُرَائِعًا، وَلَيْسَ الشَّرْكَ مِلَّةً، وَإِذَا أُطْلِقَ
الدِّينُ؛ فَهُوَ الطَّاعَةُ الْعَامَّةُ الَّتِي يَجَازِي عَلَيْهَا بِالثَّوَابِ (2).

وَيُضِيفُ الرَّغَبُ: الْمِلَّةَ كَالدِّينِ، وَهُوَ اسْمٌ لِمَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى
لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى جِوَارِ اللَّهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ الدِّينِ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا تَضَافُ إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تَسْنَدُ إِلَيْهِ، نَحْوُ:
﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ [يوسف: 38] وَلَا
تَكَادُ تَوْجَدُ مِضَافَةً إِلَى اللَّهِ، وَلَا إِلَى أَحَادِ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا تَسْتَعْمَلُ
إِلَّا فِي حِمْلَةِ الشَّرَائِعِ دُونَ أَحَادِهَا، فَلَا يُقَالُ: مِلَّةُ اللَّهِ، وَلَا يُقَالُ:

(1) الْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ، ص: 313.

(2) الْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ، ص: 509.

مَلَّتِي، ومَلَّةٌ زيد، كما يقال: دين الله ودين زيد، ولا يقال: الصَّلَاةُ مَلَّةٌ الله، وأصلُ المَلَّةِ من: أملت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ [البقرة: 282]، وتقال المَلَّةُ اعتبارًا بالشيء الذي شرعه الله، والدِّينُ يقال اعتبارًا بمن يقيمه؛ إذ كان معناه الطَّاعة⁽¹⁾.

(1) الراغب، المفردات: (ملل).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27: المجلد السابع والعشرون، سورة النحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-24-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15 م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»